لبنان والجزائر.. وجهان لحرب واحدة

رولا عبدالله

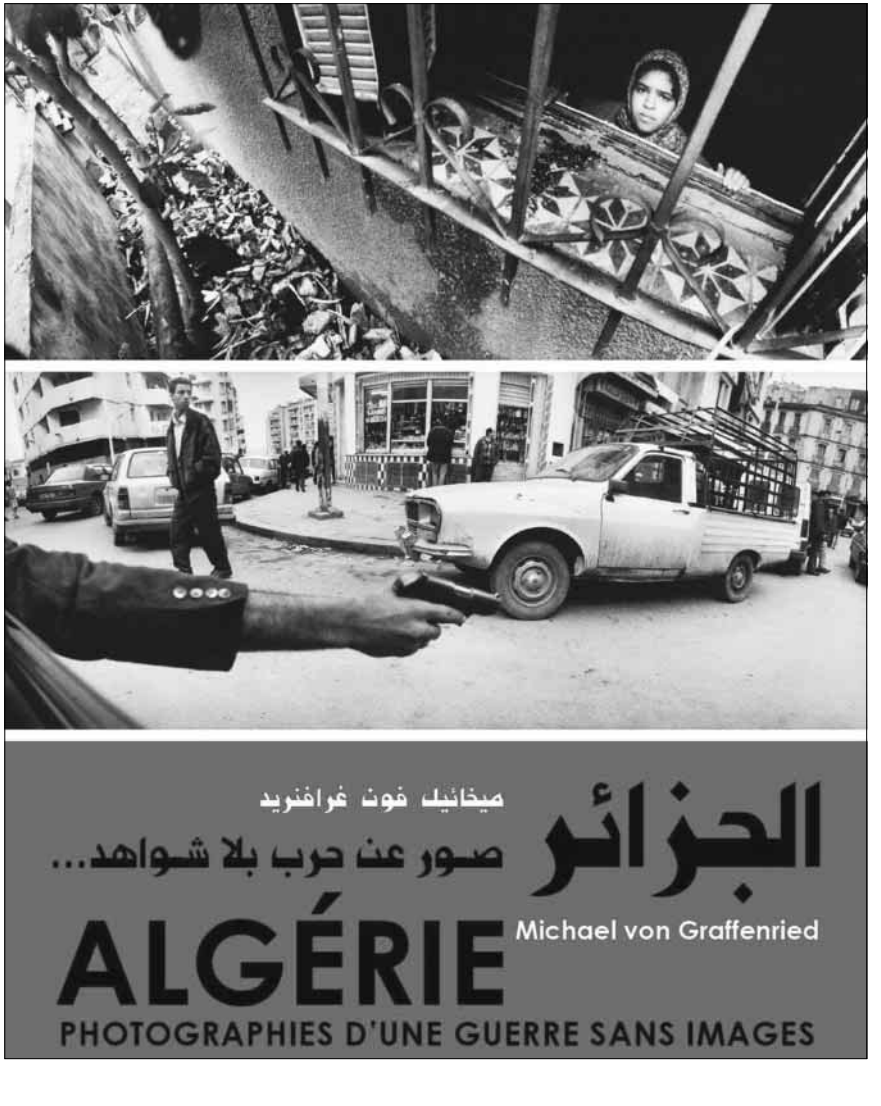

كأنها حرب لبنان بمفارقاتها: موت وحياة على رصيف واحد في مساومة مع وجوه بلا شواهد. تشرّح الوجوه أحوال مجتمع يخبئ حكايا انزلق ناسها على غفلة منهم الى أتون حرب أهلية. وكان من الصعب أن تبقى تلك الحرب «سر» الماضي الدفين في حفرة، من دون أن يأتي مغامر ينبشها من عظامها. يعرّي المغامر بعض ما تبقى من الجسد، عسى يشخّص الأسباب التي عجلت في وضع النهاية. يضعها تحت مجهر عدسته، تماماً كما فعل السويسري ميخائيل فون غرافنريد، المصور الذي التقط ذات يوم صورة لأعضاء البرلمان في بلده، نياماً داخل المجلس في احدى الجلسات، وهو نفسه الذي قصد الجزائر بغية تلمّس يوميات بلد أنهكته الحروب الى حد الألم. ذاك الألم الذي يولّد ضحكة مرة. الضحكة نفسها التي تلمحها مرسومة على شفاه مراقب لمعرض الصور الذي يقيمه في هنغار «أمم للتوثيق والأبحاث»، ضمن مشروع: «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمالة الحروب».

يلعب غرافنريد في صوره التي التقطها على مرحلتين منذ مطلع التسعينيات، تاريخ نشوب الحرب الأهلية هناك، في المحور الساخر الذي يجمع بين التناقضات. ينطلق من صورة التقطها لفريق كرة القدم النسائي، بغية تظهير المعضلة الجزائرية: الأصولية والتيار المحافظ. يشرح معطيات الصورة: «تعتبر الجزائر البلد المسلم الوحيد الذي يسمح للنساء بممارسة لعبة كرة القدم. نساء يرتدين السراويل القصيرة ويمارسن اللعبة أمام جمهور من ٦٠ ألف رجل». وهناك في المقابل سيدة ترتدي النقاب والعباءة الجزائرية، محافظة لكنها لا تستغني عن خبز «الباغيت» (أحد مخلفات الاستعمار)، ذلك النوع من الخبز الذي ارتفع سعره عشرة أضعاف منذ العام ١٩٩١، لكنه بقي مرغوباً، بحسب غرافنريد.

دوامة العنف التي ضربت الجزائر، أصابت وهيبة، الصبية التي تبلغ من العمر ١٦ سنة. تظهر وهيبة بملامح حزينة من خلف قضبان المجزرة التي أودت بحياة الأسرة والجيران وكل من صادفتهم همجية المجموعات المسلحة التي استباحت كل شيء جميل: الحياة والصبايا والذاكرة. تحكي الصبية للمصور: «خلال المجزرة في بلدة رائس»، وقع رأس جدي بين يدي بعدما قام المسلحون بذبح أبناء البلدة. أغمي عليّ فظنوا أني صرت في عداد القتلى. نجوت بأعجوبة من المصير الذي لاقته شابات كثيرات ممن خطفن على أيدي تلك المجموعات وتعرضن للاغتصاب». يعد الصورة العملاقة التي اختارها المصور في تقديمه الصبية لزوار المعرض، ينتقل الى مشهد مجاور لبلدة «رائس»، حيث شواهد قبور أولئك الذين قضوا في المجزرة. مكتوب على الهامش: «خلال ليلة واحدة ارتكبت الجماعات المسلحة مجزرة ذهب ضحيتها ٣٠٠ شخص».

يشبه لبنان، ذلك البلد الذي ما زال يضج بالحياة على الرغم من كل الموت الذي طاله. فهناك في منطقة ما، ثمة معركة تدور بين الجيش والمجموعات المسلحة. وليس بعيداً منها، آخرون يحتفلون مساءً بزفاف قريب. يرقصون، ويسهرون، ويطلقون ضحكاتهم عالياً. وهناك في وضح النهار، صبية مرتمية في أحضان شاب على «حافة» البحر. يعلّق غرافنريد: «تكاد المأساة أن تنسي أن الحياة لا تتوقف». بالنسبة الى المرأة الجزائرية، الحياة عناد ومقاومة منذ الاستعمار الفرنسي. في تلك الحقبة، حكم على «واردية» (٦٣ عاماً) بالموت ثم بالسجن. وها هي تمضي خريف العمر ممسكة ببندقية نفضت عنها الغبار من أجل الدفاع عن منزلها وحياتها.

وهناك في الجزائر، أمهات يحملن صور المفقودين من أبنائهن. يعتصمن في الساحات العامة، وفي ساحة الشهداء في قلب العاصمة، وفي مكاتب المحامين. يطلقن صرخة باسم ١٢ ألف مفقود منذ اندلاع الحرب الأهلية. وهناك غضب على الحكومة يبينه رجل من ضحايا الحرب. يرفع الرجل لافتة تختصر معاناته: «لا بد من عرض هذه الصورة في كل مكان. فالحكومة لا تعوّض علينا نحن الضحايا . في العام ١٩٩٧، أدى انفجار سيارة الى بتر قدميّ». وكذلك يوجد اغتيالات: «في حزيران ١٩٩٢، اغتيل الرئيس محمد بوضياف». يعرض غرافنريد سلسلة صور عن ردة فعل الناس والعرض العسكري خلال الجنازة للوصول الى الخلاصة التالية: «في الجزائر يمسك جنرالات الجيش بمقاليد السلطة». وتمسك في المقابل المجموعات المسلحة بأعناق الناس. تلك المجموعات بدورها تتمنى بأن تمسك بعنق امرأة من أجل «دقة». وهكذا يختصر المصور السويسري «الحدوتة» الجزائرية ضمن ٣٤ صورة، على لسان رشيد الذي ينتمي الى جبهة الانقاذ الاسلامية المحظورة: «النساء أنصاف عاريات هن في اعتباره الارهاب بعينه». ربما من هنا بدأت شرارة الحرب، من صوب امرأة ما، من خيانة، أو عشق، أو مزاج... فاشتعلت الأمكنة. ذلك تأويل، لكنه يصلح في كل زمان.